مظاهر الانتماء الإنساني في الثورة الجزائرية

ـ قراءة في رواية "اللاز" للطاهر وطار ـ

أ. عــادل بوديــار
جامعة تبسة

الملخص:

في رواية " **اللاز" للطاهر وطار**، تتحد قــوة الإيــديولوجيا السياســية بالانتماء الإنساني لزمن الحرب المتمثل في الثورة التحريرية التــي تحولــت بفعل الإبداع إلى عالم قائم بذاته، تتنازع في الشخصيات الفاعلة فــي الروايــة أدوار البطولة والانهزام في رغبة أكيدة للإقناع الفني والتاريخي عــن طبيعــة العلاقة بين الثورة والإنسان لترجيح كفة الانتصار للتفكير الواعي المقنن، فإن شرعية الثورة ترجح الانتصار للإنسانية في انتمائها البريء لآمال التحرر.

Résumé

Dans le roman **"Ellaz" de Tahar Wettar** l'idéologie politique s'unie avec l'appartenance humaine durant la guerre qui est une révolution de libération dont elle se transforme, par l'art de création, à un monde indépendant.

les personnages principaux du roman se combattent sur les rôles de héroïsme et la défaite certainement pour une conviction artistique et historique sur la nature de la relation entre la révolution et l'homme. l'écrivain veut rendre la victoire pour la pensée consciente, mais la la victoire pour l'humanité dans son appartenance terrestre des espoirs de l'indépendance loin de la partisannerie et les lois politiques pour, que tout le monde arrive à un état de l'inconscience absolue.

تمهيد:

عرفت مرحلة السبعينات في الجزائر نوعا من الكتابة الإبداعية تحت راية الالتزام الفني خاصة في مجال الرواية موازاة مع تيار الاشتراكية، مما جعل هذا المنحى يأخذ حيزا واسعا من التأييد والإيجابية، ولكنها كانت غالبا ما تتماهى داخل الخطاب الإيديولوجي فتكون صوتا للسياسة بدل أن تكون صوتا للفن، ويبدو أن " **الطاهر وطار**" حقق مستوى ملفتا للنظر وللنقد من خلال قدرته على الإبداع الفني بمعالجة الواقع والتعبير عن معاناة الإنسان الجزائري قبل الاستقلال وبعده، بوعي فني وإنساني ربط فيه بين نضال الشعب في سبيل الحرية ونضاله في سبيل البناء، وبروح واثقة استطاعت أن تلمح إلى الواقع من خلال رؤية نافذة إلى ما وراء الحدث الروائي أو الحدث الواقعي، الذي صنع الإنسان الجزائري وأسّس لجذوره، خاصة من خلال رواية " اللاز" وهي أكثر روايات " الطاهر وطار" نقدا للواقع الثوري في الجزائر، سواء ثورة التحرير أو ثورة الاشتراكية.

ولعلنا في هذه الدراسة سنركز تحليلنا على ثورة التحرير من خلال التماس بعض إجراءات المنهج " البنيوي التكويني" لإضاءة جوانب الواقع الإنساني في انتمائه للثورة التحريرية الجزائرية التي تصنف ضمن مقدّسات الكيان الجزائري، لهذا فإن النزعة الرومانسية الخالصة كانت المهيمنة على جلّ الكتابات الروائية التي تناولت الثورة، وإن لم تكن رواية " اللاز" قد تخلّصت تماما من هذا الهاجس إلا أن عملية التلازم الإبداعي بين الواقع والفن جعلت الرؤية الفنية تمتاز بالتركيز اللاواعي على جانب الانتماء الإنساني للثورة الجزائرية، وطرح القضية على لسان الشخصيات، وفي مواقفهم المختلفة والمتنافرة وفق خطوط متوازية غالبا، ولكنها تسير داخل مسار فني واحد حقق حالة من التكامل بين الموضوع كلحظة واقعية واعية، وبين العمل الروائي كلحظة إبداعية لاواعية؛ لأن ((**أي عمل إبداعي، خاصة الرواية ــ لا يخلو من التزام إنساني بتجسيد هموم المجتمع وطموحاته المشروعة**))[1] سواء أكان الإنسان في حالة سلم أم كان في حالة حرب.

- **بنية الاختلاف والائتلاف في الرواية:**

اجتمعت داخل الرواية مجموعة من الشخصيات وحَدها حدث مفرد هو: " **الحرب** "؛ إذ تتناسق عوامل " **الاختلاف/ والائتلاف** " لتسيّر العمل الروائي وفق البنية الترميزية التي يقصد الكاتب إلى إبراز مقولته السردية

من خلالها، خاصة من زاوية استدعاء المــوروث التــاريخي، لا لغــرض تصويره تصويرا فوتوغرافيا، وإنما لنقده بوعي فني وجمالي متميز من أجل إنتاج نص يلمح إلى موقف أو مواقف تكشف خفايا الواقع والتاريخ كعمليــة إنتاجية فنية، ذلك أن أي ((**تفاعل مع التراث لا يمكن أن يكون منتجــا إلا إذا كان تفاعلا إيجابيا مع واقعه ... أي الواقع الذاتي الذي لا يزال يتفاعل مع التراث باعتباره امتدادا ثقافيا وروحيا، ومع الواقــع العــام**))[2] الــذي يؤول إليه الخطاب الفني الخاضع للنقد والتحليل.

أ- المرأة:

تشكّل المرأة داخل العمل الروائي تيمه فنية تتجسد من خلالهــا ملامــح القهر والتسلط والضعف الإنساني، التي يريد الكاتب غالبا التعبير عنها، ولكنــه يتحاشى التصريح بها خشية الوقوع في التقريرية المباشرة، فيحولها إلى رمــز جمالي يتماشى مع تأملاته الواقعية، وما يريد أن يشكله من علاقات فنية بــين فئات اجتماعية غير متكافئة معنويا وإنسانيا.

وإذ يبدأ المشهد الحواري الأول في الرواية بجملة تخاطب الأم حليمــة بعبارة: ((**زغردي أمي حليمة زغردي**))[3]، فإن حضور المرأة ضمن زمــن التاريخ السردي والتاريخ الواقعي يشكل عتبة دلالية لا بد من المرور بها فــي عملية الحكي، ذلك أنها تمثل جزءا من بنية الاختلاف والائتلاف التــي تقــوم عليها عملية القص الروائي؛ لأن الكاتب لم يقدم المرأة ضمن صورة الأم كمــا توحي بها هذه العبارة فحسب، بل قدمها وفق أكثر من نموذج، بل وفق نمــاذج متفاوتة الالتقاء والتشابه.

وإذا كانت الأم في مضمونها الفكري ككينونة إنسانية تتشكل فضاء من الدلالات العبقة بمعاني الطهارة والتضحية والنقاء، فإن أم " اللاز" في الروايــة تحمل داخل أمومتها اللاشرعية كائنا إنسانيا قبيحا في مفهومه الشــعبي، ممــا أدى إلى تصوير " اللاز" في حد ذاته بكل ذلك القبح والوحشية الكريهة التــي كان يصبها أو ينسبها تلقائيا إلى أمه باعتبارها الجوف الذي نبع منه كل ذلــك الفساد في شخصيته وطباعه ((**هذا اللقيط الذي لا تتذكر حتى أمه مــن هــو أبوه، وكأنما التقطته من الرماد مثل الدجاجة، برز إلى الحيــاة يحمــل كــل الشرور**))[4] ، التي كان أولها أنه وجد أما لا تعرف له أبا، وبالتــالي فهــي أم خالية من كل صفات الأمومة المفترضة، فهي إلى جانب كونها أنجبت " اللاز" ليعيش بائسا دونما ذنب اقترفه، تسهم في بؤسه ولا تفهم ضعفه الإنساني فــي

الدفاع عن إنسانيته التي أذلها خطأ ليس هو مرتكبه ((**أما اللعينة أمه، فيبدو أن العقاب الذي كان ينتظرها في الآخرة قد ضوعف، شرط أن تناله في الحياة الدنيا وعلى يد اللاز ابنها ... كامل يومها تقضيه في تتبعه، تتقصى أخباره، حتى إذا ما بلغها أنه في غمار معركة حامية، سارعت إلى الشامبيط لتأتي به، وتقتحم الميدان وتصدر له الأوامر المشددة بإلقاء القبض عليه والزج به في السجن، حتى إذا ما فعل تندم، وتركض إلى زوجته تقبل يدها راجية أن تتوسط في إطلاق سراح ابنها، ثم تأتي باب مخزن قديم، جعله الشامبيط سجنا لا يستقبل عادة إلا اللاز وتسترسل في النواح))**[5] ، فمن خلال هذه الصورة تتآلف شخصيتان ضمن شخصية واحدة لتشكل بنية الاختلاف السائدة على نسق الشخصيات الفاعلة داخل الرواية بشكل عام، والتي ((**تسير بوتيرة متوازية أحيانا وبوتيرة متقاطعة أحيانا أخرى، لتشكل نسيجا من العلاقات والأنساق مليئا بالدلالات))**[6]؛ حيث إن صورة الشخصية الواحدة تدل على أكثر من مدلول، سواء من خلالها كشخصية فردية، أو من خلال علاقتها التفاعلية مع الحدث الروائي من جهة ثانية أو مع باقي الشخصيات من جهة ثالثة.

وإذا كانت المرأة الأم هنا رمزا للجزائر، فإن الأم لا يمكن أن تتجب طفلا غير شرعي على الأقل من ناحية انتسابه إليها كأم، ولذلك فإن المنحى السردي للحدث الروائي يغير نمط شخصية "اللاز" من النقيض إلى النقيض، ليصبح أحد أهم الثوار المدافعين عن الجزائر ليثبت أنه الابن الشرعي للوطن بصرف النظر عن قضية الانتساب الأبوي.

وتبقى الدلالة الرمزية للمرأة التي لها علاقة بـ "اللاز" دوما، المرأة المنحطة أخلاقيا ((**فاللاز بواسطة الشقيّة أمه، يتصل ببعض العاهرات، ويمهد لهن سبل الاتصال بالضابط ...))**[7] ، إلا أن هذه الدلالة تأخذ في الانسحاب وإعادة التشكّل وفق ما تقتضيه تغيرات شخصية "اللاز" عبر الزمن الروائي.

وفي السياق نفسه تتمحور شخصية "قدور" في علاقته بالمرأة في الرواية، فهو من جهة يكنّ محبة غريبة لأمه إلى درجة أنه ((**لا يمكن أبدا أن يكذب على أمه))**[8] غير أنه بعيد بعدا شديدا عن هذه المثالية لأنه يخون جارهم وصديقهم " الشايب السبتي" بإقامته علاقة مريبة مع ابنته زينة **((تأملها في نهم وأسى، ثم أفسح المجال لبسمة تنبت على شفتيه وهمس: ـ وحدك.**

ـ هيا أمي راقدة، وسيدي في الجامع.))[9]

وعليه تتشكل رمزية المرأة، فهي في جميع علاقاتها ببقية الشخصيات، صورة للمرأة العربية عبر تاريخ القيم التقليدية والإنسانية، لـذا فـإن الكاتـب يختصر حضور المرأة في الثورة من خلال قوله: ((**إلا أن النسـاء حزينـات حزنا لا يعرف له سبب**))[10]، من هنا تتشكل العلاقة بين المـرأة والجزائـر، ويتكون الخيط الرابط المكون لبنية التشابه بـين المـرأة الإنسـان، و المـرأة الجزائرية الثورية بالفعل أو بالمشاركة على أساس أنها كانت تعبر عن حزنها الإنساني من خلال حزنها الثوري.

((**لقد برهنت الحرب على أنها كانت الفترة الذهبية في تاريخ المرأة الجزائرية إذ أنه في أعقاب اندلاع الثورة ظهرت تغيرات مفاجئة شاملة وبعيدة المدى في وضعية المرأة**))[11] إلا أن الاختلاف الإنساني يتشكل من جديد من خلال مقولة "حمو" حول علاقته بإحدى النساء: ((**عندما أحتضنها في الظلمة، كثيرا ما أبكي، وكأنما أبكي على حياتي الهاربة مني ...**))[12] ، لتتحول الدلالة من المرأة كفعل سلبي إلى المرأة كفعل إيجابي متمثلة في فعل الحياة، إشارة إلى الثورة التي تمثل الحياة بالنسبة إلى الشعب الجزائري المقهور الذي كان يـرى حياته تهرب منه وتضيع بسبب المستعمر الفرنسي، وعليه فإن التـدرج فـي تشكيل البنى الدلالية للمرأة داخل الرواية يتآلف تلقائيا مع البنى الواقعية للتاريخ الجزائري بين الوجود الاستعماري قبل الثورة وبعد قيامها.

ب- زاوية الرؤية الثورية في الرواية:

لم يكن الحديث عن الثورة الجزائرية في رواية " اللاز" حديثا جـاهزا أو تقريرا تاريخيا مفعما بالتهليل، بل كان حديثا مؤسَّسا ينطلـق مـن رؤيـة سردية تجمع بين الإيديولوجيا كتاريخ معيش بالفعل وبين التركيز على زاويـة النقد الموضوعي لأحداث وقعت في زمن الثورة، لتكون بدورها أحداثا تقع في زمن السرد الروائي تصديقا لمقولة أن ((**الأدب ظاهرة اجتماعية وهو بهـذا الوصف يشتبك مع عديد الظواهر الاجتماعية الأخرى، بحيث يصح القول أنه لا يمكن فهم الأدب في حقبة تاريخية محددة بغير تحليـل دقيـق للظـروف السياسية والاقتصادية السائدة في نفس الحقبة**))[13]، غير أن زاوية الرؤيـة الواقعية من الناحية الفنية تتصل اتصالا وثيقا بالرؤية الإنسانية التي يقوم عليها الفن في الكشف عن نوايا الواقع الكائن والواقع الممكن.

ولهذا فإن الظروف المصاحبة للثورة الجزائرية فـي روايـة "الـلاز" تندمج في رؤية واحدة هي الرؤية الإنسانية ممزوجة ببعض تفاصيل السياسـة

في زمن الحرب، وبهذا تم الفصل بين زاويتين متلازمتين: **الأولى**: زاوية الوصف؛ أو ما نصطلح على تسميته بـ : **الرؤية الكشفية.**

الثانية: زاوية النقد؛ أو **الرؤية النقدية**، تماشيا مع بنى الاختلاف والائتلاف في الرواية.

وعليه يبقى التحليل منصبا على فعل الشخصيات وحركتها داخل الرواية لأن اختلافها وتماثلها يمنح الفرصة لاتساع زمن الوصف السردي والكشف عن الواقع الثوري كما شاء له الفن أن يكون، بالقول إن أي عمل فني **((لا يمكن أن يكون غريبا كل الغربة عن كل واقعية ... دون أن يفقد بذلك قيمته الجمالية))**[14] التي تصاحب العمل السردي بالضرورة.

1- الرؤية الكشفية:

الرؤية هي ((**البنية الفكرية في المجتمع والتصور الفعلي للعلاقات الإنسانية التي ترقى إلى مستوى يتجاوز الواقع إلى آفاق فلسفية تؤسس للوعي الاجتماعي في صورته المثالية**))[15]، وتنبثق الرؤية الكشفية من شخصية " اللاز" باعتباره صورة دالة على الشعب الجزائري الذي وجد نفسه داخل الثورة دون تأسيس أو تخطيط، إذ يقدم الكاتب " اللاز" مباشرة بعد حديثه عنه كإنسان سيء فقد كل ما يربطه بالحياة السليمة كونه لقيطا، في صورة مناقضة تماما وهو بين أيدي الجنود الفرنسيين يقودونه إلى مصير مجهول ((**كان الموكب قد اقترب من المتجر: جنديان يجران اللاز من ذراعيه، وثمانية يستحثونه السير باللكمات، والضرب بمؤخرات البنادق، بينما الدماء تتطاير من أنفه ووجنتيه وجبهته وشفتيه وهو يترنح تارة ويقاوم أخرى ... المنظر عاد بالنسبة لجميع المشاهدين عدا قدور الذي ظل لحظة يراقب كل حركات اللاز ويقلب كل كلمة يتفوه بها...**))[16] ، وهنا تتلخص زاوية الرؤية الكشفية التي تصف حالة إنسانية تعرض إليها واحد من الشعب، إلا أنها ليست حالة فردية بل هي حالة جماعية يتقاسمها أفراد الشعب الجزائري المجبورين بالقوة والنار على دفع ثمن جزائريتهم أمام الاستعمار الذي يريد القضاء عليها، وكأن كل واحد منهم يقول: ((**هذه هي الحياة، حين ينتهي شيء، يبدأ شيء آخر، تنتهي السلم لتبدأ الحرب.. الليل والنهار، ينتهي أحدهما ليخلفه الآخر.. انتهى وجودي في القرية، ليخلفه وجود آخر، في مكان آخر، ولربما ليخلفه العدم ...**))[17]، من هنا تتحدد علامات الكشف عن انتقال الإنسان بفعل الثورة من زمن إلى آخر، ومن مكان إلى آخر

مجهول، أو ربما مكان وزمان مساويان للعدم، فقد تكون الثورة فعلا لبداية الحياة أو لنهايتها.

وتستمر زاوية الرؤية مشرعة على شخصية " اللاز" بما تحمله من دلالات شكلت بؤرة تنطلق منها الأحداث الروائية تباعا ولا يمكنها أن تنفصل منها، وذلك لأن التشكيل الفني للشخصية انطلق أساسا من بنية لغوية تمثلت في اسم " اللاز" الذي كان في القديم **((يطلق على الجزء الأدنى من العملة، والآن يطلق على العدد المفرد في أوراق اللعب ...))**[18] ، ليمهد بها لفكرتين أولاهما أن "اللاز" هو أدنى طبقات المجتمع باعتباره لقيطا، غير أن اندماجه في الثورة بصدق أكّد على أن الكاتب من خلال رؤيته الواقعية للثورة يعبر عن الانتماء الإنساني بمعناه الحضاري والوجودي، خاصة وأن الفكرة الثانية في دلالة اسم " اللاز" وهي العدد المفرد في أوراق اللعب لا تعني الفردية المطلقة أو النموذج المثال، بل تعني تفاعل الفرد مع الجماعة التي ينتمي إليها؛ ولأن الثورة الجزائرية هي ثورة ضد القهر والظلم، فإنها ليست ثورة شعب فحسب، بل هي ثورة الإنسان التي على أساسها يتم تغييب فردية " اللاز" ويمنع عنه معنى المصير الفردي، ويعين مصيره مصيرا للشعب أو الجماعة التي تتفق على مسار إنساني واحد **((ابتسم سي الفرحي وهو يصافح قدور، وتذكر أن أحمزي قد أصدر إليه مثل هذا الأمر أكثر من خمسين مرة ... فكل الشبان الذين جندهم قدور مروا على هذا الطريق، وهذه البغلة التي سيمتطيها الآن تعودت أن تحمل على ظهرها من حين لآخر شخصا ثانيا، وقد جاءت اليوم خصيصا لتنتظر أحدهم))**[19] هذا الأحد الذي هو إنسان اختار فعل الحرب لاسترجاع إنسانيته المسلوبة.

ويستمر الكاتب في تقديم صور تكشف عن جوانب الثورة من خلال تفاعل الشخصيات مع هذه الجوانب، وتقديمها بصيغة الخبر المباشر كعملية وصفية لمعاناة الإنسان في زمن الحرب بين المعقول والمقبول، وبين الشك والريبة، في حالة من حالات **((الوعي الإنساني، من منطلق أن الرواية شكل من أشكال هذا الوعي الذي تصب فيه أفكار الإنسان ورغباته وأحاسيسه في صراعه مع واقعه ومحيطه))**[20] ، غير أن الكاتب لا ينتهي بتلك الشخصيات إلى تقديم موقف صارم أو ناقد، وكأن دلالة أفعال الشخصيات تنتهي عند حدود الكشف عما هو موجود في واقعها وحسب **((يقتلني سي الفرحي بأمر من الإخوان ... أنا عمدتهم في القرية ... يقتلونني كما لو أنني أحد الخونة القذرين... تنوح أمي. تندب، يقاطع الناس أبي ومتجره ويموت جوعا جزاء**

خيانتي ... يا لها من قسوة ... الموت في الثورة حل صالح لجميع المشاكل، يموت الأول لتستريح منه الثورة ... لكن الثاني لماذا يموت؟ ألتستريح منه الثورة أيضا؟ يا للقسوة ...)) [21].

غير أن هذه الأسئلة لا تنفتح على التعمق في الصورة المقدمة عن جانب من جوانب الثورة لأن وظيفة الشخصية في الحدث السردي تنتهي عند حد الوصف وفتح باب مغلق كان لابد له أن يفتح، وقبل أن تتوسع أزمنة السرد على الفضاء الأبيض بين زوايا الشخصية والسؤال يتقدم الجواب الفاصل ((**خسارة واحدة ولا خسارة الآلاف ... الثورة كل الناس))**[22] ولأن الثورة كل الناس، فإن الإنسانية تضحي بنفسها من جديد كي تحفظ كيانها الفعلي الذي يتساوى فيه مصير الفرد مع مصير الجماعة حينا، ويتعدى مصير الفرد مصير الجماعة حينا آخر فيكون هدفا يلخص بموته فكرة البقاء لعناصر جماعته التي ينحدر منها ((**ومنذ الغد بدأ العمل مع حمو... شراء الأدوية والأحذية والمواد الغذائية وإرسالها إلى حيث لا يدري... وكم ذهل حين رأى حمو الفقير البائس يخرج الملايين من جيبه بينما عائلته تتضور جوعا، ولباسه ممزق رث كالعادة، بل وعمله الشاق لم يتغير، وشعر بعطف واحترام لهذا الصديق العجيب ... وفهم أكثر من قبل أن الثورة، أن هذا العمل الذي يقوم به حمو وزيدان وكل الفقراء وحتى هو أخيرا، عمل جاد عظيم، لا بد أن يغير الأوضاع فعلا، كما يقول حمو،أكثر من ذلك شعر باحتقار المال الذي كان يظن أنه سر الحياة))**[23] ، لتتجسد وفق هذه الصورة رؤية تكشف عن مدى تفاعل الإنسان مع مقدسات الحياة الروحية التي كانت الثورة إحدى دعائمها الأساس.

ثم يعود الكاتب من جديد ليقدم شخصية " اللاز"، الشخصية الثورية التي تخفي بين طياتها إنسانا قادرا على العطاء مادام الأمر يستحق ((**أنت المكلّف، أنت الأخ المناضل، ماذا أسمع؟ اللاز ما بك؟. ردّد اللاّز هذيانه: " ما يبقى في الواد غير حجاره ". ثم قال في لهجة جادة كما لو أنه لم يذق قطرة خمر، بل كما لو أنه ليس هو اللاز ولم يكنه في لحظة من لحظات حياته، إنما الأخ المناضل، المكلف بعملية تهريب الجنود الجزائريين من الثكنة: ـــ السلعة جاهزة، غدا على الساعة الخامسة، ثلاثة، اقرأ حساب حمولتهم الثقيلة ...))**[24] ، لأنهم ثوار، ولأن الكاتب في الرواية يطرح فكرة الثورة كونها مسؤولية تقع على كاهل الجميع، وليست هي التي تتنازل بل على الإنسان أن يرتقي ليكون في مستواها ((**الثورة تحول الإنسان، ومادامت عميقة، فإن التحول يحدث بسرعة ... يجب أن يرتفع ويرتفع إلى أن يصل مستوى الثورة))**[25] التي لا

تتحول إلى مادة قابلة للتشكيل بقدر ما تعمل على تشكيل الإنسان، وتحويله إلى روح تتجاوز المادة التافهة وترتقي إلى عالم القيم الفسيح.

ولأن التاريخ يختصر حياة إنسانية نابعة من سيرورة الـزمن الـذاتي، الذي تتلاحم فيه أنماط موضوعاتية تعزز الحاجة إلى الحرية واستعادة الإنسان إنسانيته في فعل الثورة بعيدا عن المدركات الحسية الآنية، فإن " اللاز" الـذي كان مجرد مسخ إنساني كريه اكتسب شرعية وجوده – فقط – عند انضـمامه للثورة، ولم يجد أباه، ليتحول إلى كائن شرعي إلا بعد أن بدأ فعـل النضـال، لينسج لنفسه داخل العمل السردي شخصـية ((**مفعمـة بالأبعـاد الإنسـانية، وقادرة في الوقت ذاته على تمثيل فئات بشرية، أو الإشارة بوضوح إلى قـيم ودلالات إنسانية رفيعة القيمة في الكشف عن حقائق الـنفس وقـوة الفكـر وتطور الوعي الإنساني**))[26] بتدرج يقصد إلى التوفيق بين العمـل الروائـي كإبداع وبينه كواقع؛ ذلك التطور الذي يبدو من خلال تنامي شخصية " الـلاز" وانتقاله من مجرد كائن لا أهمية له إلى إنسان متكامل، قـادر علـى التفكيـر والتقرير والتحمل ((**ما إن خلت القاعة حتى تمتم اللاز متنهدا مـن أعماقـه للمرة العاشرة وقد نسي جراحه وآلمه، وشعر بنوع من التفتح لمواجهة مـا يحيط به .. كل شيء، كل ما ينتظرني، أو ما تبقى لي من الحياة يبتدئ مـن هنا ... لست وحدي، وهذا هو الأهم ... لم أعد أملك أية مبـادرة ... وكمـا شاءت الظروف تتجه الدفة ... لقد انتهيت، نعم، وإذا ما استأنفت حياة جديدة فيقينا أنني سأكون لازا جديدا ...**))[27] ، ويقينا أن ((**الحرب تـدفع الإنسـان إلى أقصى إمكانياته، ومن ثمة فإنه يقوم بتصرفات لا يمكن أن تصدر عنـه في ظروف وأوقات عادية**))[28] ، لذلك فإن " اللاز" في الرواية كان منتميا إلى الثورة كإنسان بصرف النظر عن جنسه أو شكله أو طبيعته أو حتى نسـبه ((**ولو لم يكن شرعيا، ولو لم يكن شرعيا ... ابني، ابن كامل الـدوار... ابـن جميع الناس، ابن ذلك الزمن، ابن ماضينا كله يا حمو يا ولد أمـي ... فيـك بذور كل هؤلاء يا اللاز ... بذور كل الحياة ... كـالبحر... لا إنـك الشـعب برمته ...**))[29] ، وقد أحدث في الرواية بفعل التحول الإنساني المقصـود فنيـا توازنا مع العالم الخارجي ((**الذي يحيط بالإنسـان ويرسـل إليـه الحـروب والفتوحات والنزوحات والاحتلالات ... والعالم الداخلي الـذي ينبعـث مـن الإنسان والمجموعة البشرية بغية التفاعل أو الرفض**))[30]، الذي تبدو علاماته في موقف " اللاز" الثوري المؤسس على قانون الرفض منذ تشـكيل صـورته الإنسانية الأولى والقبلية داخل العمل الروائي.

ولأن الثورة تقوم على التفاعل أولا مع مقوماتها من أجل تشكيل البنية الرافضة لكل ما هو دخيل عليها، تتشكل في شخصية " اللاز" دلالات التبعية لمنطق الثورة؛ لأن انتماءه إليها كان انتماء الإنسان الواعي لحقيقته الإنسانية، وليس مجرد انتماء قيادي أو حزبي يتصور ما هو قائم مقدمة لما يجب أن يكون، على الرغم من أن الرواية مفصحة عن ((**معرفة ووعي، وإيديولوجية سابقة ومحددة لسيرورة تاريخية**))[31] تبدو جلية من خلال الارتباط المقصود بين " اللاز" و" زيدان" على الصعيد الإنساني من جهة والفني من جهة ثانية، وكذلك الإيديولوجي، إلا أن تحديد أبعاد الرؤى وتوازي دلالاتها المقصود في الرواية جعل الكاتب يقسم نظرته القائمة على الجدلية الفكرية بين التقليدية والتخطيط للعمل الثوري وفق ثنائية: " اللاز/ زيدان" لكشف أبعاد كل رؤية على حدى وتحقيق التلاحم بينهما من خلال الفصل لا من خلال الجمع: ((**لا تتصور يا ابن أمي مبلغ حبي له...إنه ثمرة حب اندلع في غمار مأساة، كان شبحه من يوم علمت بوجوده يخنقني، ويدفعني إلى التعمق في إدراك الحياة، وكأنما بدوره كان يدرك أنه روحي الحقيقية، فراح يعبر عن كل ما في قلبي من حقد وتمرد، كان دمي يغلي، وكان الموسيقى الصاخبة التي أعزفها في ضميري منذ تفتح وعيي ووقفت على الحقيقة**))[32].

وعليه تغيب الفلسفة عن تصرفات " اللاز" وإن لم تكن الحكمة غائبة عنه ولا الدهاء؛ ذلك أنه يعبر عن طبقة واسعة تسيرها قيم فطرية كثيرا ما تنجح في الوصول إلى آمالها؛ لأن ((**السلوك الإنساني يعبر عن بنية دالة تنتمي إلى الفرد، بل إلى المجموعة أو الطبقة التي يمثلها السلوك**))[33]، وبهذا يقتنع القارئ بالصورة الجديدة التي صار عليها " اللاز"، وهي صورة مناقضة لا تكاد تترك لتاريخ الشخصية الأولى أية ملامح.

غير أن " اللاز" بنهايته المأساوية ((**... يرفض زيف العالم، ويرفض التعامل بالانتهازية السائدة، ويطرح البديل: التعامل بأخلاق إنسانية، ولكنه يتمزق بين الواقع والممكن والكائن وما يجب أن يكون، وهذه المعاناة تولد في أعماقه الاغتراب**))[34]، هذا الاغتراب هو الذي جعله يتحول إلى كائن لا منتمي إلى العالم الذي اختاره بعدما كان لامنتميا إلى عالم لم يختره.

2- الرؤية النقدية:

تبتدئ الرؤية النقدية من ((**النص المفرد وانتهاء بنتاج مرحلة تاريخية كاملة**))[35] ، وتتبلور من خلال شخصية "زيدان"، ولا نتطرق إلى هذه

الشخصية في بعدها السياسي الإيديولوجي إلا بما تقتضيه ضرورة العبور، بل يهمنا منها في هذه القراءة البعد الإنساني الواعي، الذي كان انتماء معتنقيه إلى الثورة الجزائرية انتماء مؤسّسا ومحسوبا وليس انتماء الأغلبية الإنسانية التي تجد نفسها مقحمة في الحرب وطرفا فاعلا فيها دون اختيار أو تخطيط.

تبدو شخصية " زيدان" من خلال جزئيات سردية تحدد نظرته إلى الثورة وإلى الحياة عامة من زاوية الفكر الشيوعي، وتعنى هذه الشخصية في الرواية بتعرية بعض الوقائع والأفكار التي تستبد بالفكر العربي أو بالفكر الإنساني، الذي يتحول فيه الإنسان المفكر الواعي إلى كبش فداء في أيدي قصار الأفق ومحدودي التفكير وضعيفي الوعي، وقد تمركزت الرؤية حول عدة اتجاهات ((... **على محورين رئيسيين: أحدهما يساري مرتبط عالميا بإيديولوجية الأهمية المادية، وثانيهما مرتبط تاريخيا بالحركة التحريرية للشعب في مراحلها التاريخية**))[36] على اختلاف في معطيات الزمان والإنسان في كل مرحلة.

وإذ تتآلف هذه الفكرة مع البنية الرئيسية للرواية والمتمثلة في بنية "الاختلاف/ والائتلاف" فإن القضية الأساس التي تشغل هذا الحيز من البحث هي قضية الأفكار الإنسانية التي تنبع من عقل "زيدان" في دفاعه عن بلده وانتمائه إليها على الرغم من أنه كان أحمر: ((**افهمني جيدا، كي يصير الإنسان سياسيا، يتبغي أن يفهم قبل كل شيء أن الفرنسيين بشر مثلنا**))[37] ولأنهم بشر فلا بد من إقامة جوّ من المساواة البشرية التي تقتضي إنسانيا أن يقتص المظلوم من الظالم ويسترجع حقّه.

ولعل أول ما يبين الفكرة الإنسانية الطاغية على الجو الإيديولوجي للرواية علاقة شخصية "زيدان" بشخصية "اللاز"؛ فعلى الرغم من التباين الفكري والانفعالي الذي يميّز كل شخصية، إلا أن احتفاء كل منهما بلقاء الآخر عبر الجوّ الدّرامي المليء بالدموع يبين القيمة الإنسانية التي تخضع لها أبجدية السيكولوجية الفنية والتي لا تعرض إلى نفسية الأبطال دفعة واحدة بل عبر مواقع متعددة من الحركة السردية: ((**آه لم يحن أواننا بعد ... سابقون لزمننا ... تفصلنا عنه مسافات، مسافة جيلين أو ثلاثة على الأقل ... ولسبب ما، وجد زيدان نفسه يفكر في النّبي محمد ويشعر نحوه بعطف كبير وهو يتصوره متسللا في البهمة إلى غار حراء ... المعاناة لا ترسم إلا بإحساس مزدوج فكري وعاطفي**))[38].

وتتكاثف العلاقة الإنسانية لتحدد الهدف الواحد بين كـل الشخصـيات لتبين كيف أنه حدث ((**هكذا فوق موج الأحداث، دخلت الجزائر كلها؛ رجالها ونساؤها وأطفالها بوتقة الثورة، لتصهرها الأحداث كما لم تصهر قبلها شعبا عربيا قط**))[39] ، فإن هذا المكون الرئيس للبنية السردية يشكل حيـزا واقعيـا يحيل إلى فضاءات لغوية راهنة تتلاحم دلاليا مع معطيات الواقـع الزمكـاني وتعبر عن مرحلة كائنة تخبئ بين طياتها أبعـاد الممكـن، فـي حالـة مـن الاختصار والتكثيف، من خلال لاشرعية "اللاز" ونهايته المأساوية وأباه، وكأن الكاتب يسعى ((**نحو البحث عن الجانب المغيب في الحركة الوطنيـة، فأمـا الطرف الذي يمارس عملية التغييب هذه فهو مدفوع بطموحات بورجوازيـة ومحكوم بعقلية تحارب في اتجاهين، ضد الاستعمار من جهـة وضـد قـوى التقدم من جهة أخرى، إنه يساهم في صنع الثورة ويعمل على إجهاضها في آن**))[40] ، وذلك يبدو من خلال موقف الشيخ الذي يأمر بذبح "زيدان"، وفـي الوقت نفسه يساهم في اغتيال كل محاولة لاستمرار الفكر الثوري الواعي مـن خلال الحالة التي آل إليها "اللاز" وهي فقدان وعيه أو جنونه لاحقا.

وتتشكل الأبعاد الإنسانية في علاقة "زيدان" بالثورة من خلال رمزيتـه إلى المشروع الإنساني أو النهوض بالأغلبيـة المقهـورة لتحقيـق التسـاوي الإنساني بين أفراد الشعب، فيكون بهذا ((**المدلول السياسي هـو أسـاس أي عمل ثقافي، فهو المبتدأ والمنتهى ...**))[41] وعليه فإن حركته الثورية لم تقف عند حدود الدفاع عن الوطن ضد الاستعمار، بل هي محاولـة لإقامـة فكـر جزائري إنساني يسعى لنبذ الظلم والدفاع عن الحق من خلال رؤيته للعـالم ((**وقد تماثلت في العمل الأدبي أي تحولت إلى نسـق مـن الـرؤى والأفكـار المترابطة**))[42] إلا أن الفكرة الإيديولوجية الشاسعة البون مـع الإيديولوجيـة الوطنية الجزائرية القائدة آنذاك جعلت الواقع الكائن يطغى على مـا يجـب أن يكون بوسيلة سريعة وحاسمة تمثلت في فعل الذبح والاستئصال فـي حركـة سريعة تبين أن الكاتب أراد في روايته أن يدعم وجهة نظر الطبقة المثقفة التي كان يمثلها "زيدان" و((**يعزز موقفها كطبقة تريد أن تستقطب أكبر عدد مـن رجال الفكر والعلم ... ويؤهلها إلى الوقوف ندا لباقي الطبقات الأخرى التـي تحاصرها من كل جهة**))[43] ، إلا أن النقد الـذي يصـب علـى دور الحـزب السياسي يغفل الأبعاد الإنسانية المتضمنة داخل فكر هؤلاء المسلمين الذين لـم يكن يهمهم من العمل السياسي أكثر مما يؤهلهم لبلوغ حريتهم واستقلالهم.

إن الانتماء الإنساني لشخصية " زيدان" من خلال رؤيته النقدية للعالم من حوله، تسعى إلى الهدم من أجل البناء ((**وليس بالضرورة أن يبقى ذلك محصورا في تغيير الشكل بتغيرات المحتوى العام: الروحي والفكري والوجداني. تغير الرؤية والنظرية والقيمة والسلوك والفهم والنظرة إلى الحياة وكل ما يحكمها من قوانين وإلى الآخر والعلاقة معه فيها، وإلى العلاقة بين الأشياء والأحياء في أنظمة الحياة والكون**))[44] ، لذا فإن " زيدان" من خلال الرواية كان يسعى إلى إفهام مَن هم حوله، وإلى التأسيس لفكر إنساني واع يؤهل هؤلاء البسطاء إلى الاستمرار الثوري بفاعلية إنسانية راقية تضمن لهم حقوقهم بعد الاستقلال.

وبهذا فإن الكاتب من خلال تشكيله الفني لأبعاد الانتماء الإنساني للثورة الجزائرية عمد إلى إجلاء أنواع من الوعي لدى أبطال الرواية، وإن لم يكن هذا الوعي متوافقا مع وعي المؤلف الخاص، إلا أنه يشكل نقطة لتلاقي دلالات النظام اللغوي والحواري بين تلك الشخصيات، من خلال المناقشة والنقد أو من خلال السؤال والتجاهل، على سبيل الإلماح الدلالي لمستويات من التفكير الإنساني وتضامنا لإيديولوجيات متعددة تندمج في حدث معين ((**إننا هنا لا نحمل رتبا عسكرية، ولا نستعملها كذلك ... إنما نقوم بمهام ومسؤوليات. أنا شخصيا ضد الرتب في الجيش الثوري، لأنها تحدث انفصالا بين مناضلين لا يربطهم بالكفاح سوى الإيمان المشترك بتحرير الوطن، وتعديل الحياة ... معظم هؤلاء المجاهدين، وإن كان ينقصهم التفكير الواضح، لا تنقصهم الجرأة وروح التضحية والفداء ... إنها لحرب جادة، وإنها لنواة فعلية للثورة، الثورة الحقة، الواعية، الصادقة، المنطلقة حتى النهاية**))[45].

غير أن " الرؤية النقدية " في الرواية تتوسل الأبعاد الإنسانية لتعبر عن مواقف موسومة بالعدمية الصريحة من خلال تشكيل العلاقات الآنية والمتقطعة بين "زيدان" و"اللاز" الذي هو من جانب المتوقع السردي استكمال واستمرارية لفكر والده المحكوم عليه بالموت واللاجدوى ((**الشيوعي والشمعة لا دور لهما إلا الذوبان، الانتهاء والذوبان ... ثم ارتخت كل عضلاته، ودارت به الأرض، ومد يديه يحاول التشبث بشيء ما، ثم هوى**))[46].

وعليه يبدو أن الفكر المعروض في الرواية فكر مهزوم مسبقا، وإنما استخدمه الكاتب لإيصال قيمة معينة لا تؤسس لاستكمال المشروع الواقعي بقدر ما تعمل على إبداع مكونات وكائنات تشكل عالما خاصا يتناسق وفق المنظور المنطقي للعمل الروائي لا غير ((**فالفنان لا ينسخ الواقع بل يبدع**

... أشياء تشكل عالما موسعا وموحدا إلى هذا القدر أو ذاك، عالما ذا تناسق ومنطق داخلي منظورا إليه من زاوية معينة))[47] ، وبهذا يمكن بلورة لاجدوى المطمح الإيديولوجي من خلال تقديم البطلين الرئيسين وفق ثنائية ضدية على مستوى المنطقية الواقعية والسردية على السواء، وذلك أن "اللاز" كان مطعونا في نسبه من جهة أمه ومن جهة أبيه أيضا، سواء كإنسان بسيط وسط جماعة شعبية أو كإنسان فاعل وسط جماعة ثورية، بحيث ترجح الكفة للمطمح الإنساني في تعامله مع معطيات الوجود القيمي للبطل وعلاقته بمن حوله ((**وفي السياق الروائي ... تكشف عن اللحمة الصميمية التي بين الوجود الذاتي والوجود الموضوعي، وإن الإنسان ليس فقط "أنا" يمكنها التوحد، وإنما هو "وجود في العالم" يحتم عليه مواجهة العالم ...))**[48]، وهذا ما حدا بتغيير شخصية "اللاز" في الرواية، في حين ظلت شخصية "زيدان" على حالها على أساس أنها تعكس زاوية رؤية مخالفة، يتم من خلالها رؤية العالم الوحيد المشروع واقعيا وفنيا وهو عالم الإنسان **((يوم التحقت بالثورة لم أستشر أحدا، لا الحزب ولا غيره، رغم أنني عضو اللجنة المركزية، أوجبت الظروف المحيطة بي ذلك ففعلت، وإذا ما سئلت هل انسلخت من حزبي، فسأجيب فورا بالنفي، وإذا ما طلب مني ذلك. فسأظل أسأل عن الدوافع ... لن أنسلخ. ولن أدفع الاشتراك. ولن أسعى لتكوين خلايا جديدة، وسأظل أكافح من أجل الاستقلال الوطني))**[49].

إن هذا الخطاب الروائي (**رواية "اللاز" للطاهر وطار**) قد تمحور حول الوظيفة الإخبارية بطريقة شفافة عمدت بين الحين والآخر إلى الدلالة الترميزية من خلال بعض الشخصيات؛ ذلك أن الرواية تبنت الخطاب الواقعي الوصفي الإيديولوجي، لكنها لم تعمد إلى التبرير بقدر ما قصدت إلى النقد وكشف المستور؛ إذ نجد أن الكاتب قد وظّف شخصيتين متمايزتين فكريا، لكنهما متكاملتان على مستوى البنية العامة للرواية، وهي بنية " الاختلاف/ والائتلاف " لتعزيز الرؤية **النقدية** التي لا يمكن تفسيرها دون المرور بالرؤية **الكشفية** للأحداث.

وانتهت الرواية من خلال سرد الأحداث إلى صورة مأساوية مفجعة على الصعيد الإنساني، وذلك لم يكن إغلاقا للعين على بنى الواقع المتغير بقدر ما كان انفتاحا على أزمات إنسانية لاحقة، قد لا تكون لها علاقة بالحرب ولكن بالتأكيد لها علاقة وثيقة بالفكر والوعي وحركتهما في العالم الإنساني، ليتجاوز الكاتب في عرض شخصياته الصور الظاهرة المألوفة إلى الصور الرمزية

الدالة التي كانت تعبّر عن القيمة أكثر من تعبيرها عن الشكل، مثل شخصـــية " أم اللاز"، شخصية " الخائن" ...إلخ.

الهوامش:

---

1 - عبد الفتاح عثمان، الرواية العربية الجزائرية ورؤية الواقع، دراسة تحليلية فنية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1993، ص10.
2 - سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، من أجل وعي جديد بالتراث، الطبعة الأولى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2006، ص230.
3 - الطاهر وطار، اللاز ـ رواية ـ ، الطبعة الثالثة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت)، ص02.
4 - الرواية، ص05.
5 - الرواية، ص06.
6 - كمال أبو ديب، جدلية الخفاء والتجلي، دراسة في بنيوية الشعر، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1995، ص294.
7 - الرواية، ص10.
8 - الرواية، ص10.
9 - الرواية، ص10.
10 - الرواية، ص14.
11 - عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري (1925- 1967) ترجمة: محمد صقر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص205.
12 - الرواية، ص16.
13 - السيد ياسين، التحليل الاجتماعي للأدب، مكتبة مدبولي، مصر، 1988، ص185.
14 - لوسيان غولدمان وآخرون، البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، الطبعة الثانية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 1986، ص49.
15 - عمرو عيلان، الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، دراسة سوسيو بنائية في روايات عبد الحميد بن هدوقة، منشورات قسنطينة، الجزائر، 2001، ص42.
16 - الرواية، ص07.
17 - الرواية، ص09.
18 - الرواية، ص91.
19 - الرواية، ص23.
20 - عبد الله أبوهيف، المنهج الاجتماعي في النقد الأدبي العربي الحديث، الرواية الجزائرية أنموذجا، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد31، العدد03،اللاذقية، سوريا، 2009، ص12.
21 - الرواية، ص24.
22 - الرواية، ص24.
23 - الرواية، ص32.

24 - الرواية، ص33.
25 - الرواية، ص38.
26 - أحمد شعث، بناء الشخصية في رواية "الحواف"، مجلة جامعة الخليل للبحوث، المجلد05، العدد02، فلسطين، ص07.
27 - الرواية، ص60- 61- 62.
28 - عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري (1925 - 1967) ، ص167.
29 - الرواية، ص68 ، 110.
30 - عبد السلام المسدي، قضية البنيوية، دراسة ونماذج، الطبعة الأولى، وزارة الثقافة، تونس، 1991، ص208.
31 - إبراهيم عباس، الرواية المغاربية، الجدلية التاريخية والواقع المعيش، دراسة في بنية المضمون، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال، الجزائر، 2002، ص09.
32 - الرواية، ص69.
33 - لوسيان غولدمان وآخرون، البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ص51.
34 - كمال أبو ديب، الأدب والإيديولوجيا، مجلة فصول، الجزء02، المجلد05، العدد04، مصر، 1985، ص72.
35 - محمد عزام، البطل الإشكالي في الرواية العربية المعاصرة، 01، الأهالي للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 1992، ص16.
36 - محمد بشير بويجرة، الشخصية في الرواية الجزائرية (1970، 1983)، ديوان المطبوعات الجامعية، (د.ت)، الجزائر، ص44.
37 - الرواية، ص72 - 74.
38 - الرواية، ص28.
39 - الرواية، ص 35.
40 - أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، مصر، 1963، ص252.
41 - مخلوف عامر، الرواية والتحولات في الجزائر، دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2000، ص22.
42 - سعيد يقطين، الأدب والمؤسسة والسلطة، نحو ممارسة أدبية جديدة، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2002، ص44.
43 - ميجان الرويلي، وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، الطبعة الثالثة، المركز الثقافي الغربي، الدار البيضاء، المغرب،2002، ص78.
44 - إبراهيم عباس، الرواية المغاربية، الجدلية التاريخية والواقع المعيش، ص61.
45 - الرواية، ص 100.
46 - الرواية، ص 107، 144.
47 - لوسيان غولدمان وآخرون، البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ص52.
48 - عدنان بن ذريل، النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2000، ص121.
49 - الرواية، ص173، 185.